الباب الثاني

التجديد ، التقليد، الاتباع: دراسة في المصطلح والمفهوم وأشكال العلاقة بالاجتهاد

الفصل الأول: في مفهوم وأسس التجديد، وأوجه التداخل والتكامل مع الاجتهاد

الفصل الثاني: في مفهوم التقليد والاتباع، وأوجه التقابل والتكامل مع الاجتهاد

obeikan.com

obeikan.com

الفصل الأول:

في مفهوم وأسس التجديد وأوجه التداخل والتكامل مع الاجتهاد

أولاً: التجديد في اللغة والشرع والاصطلاح

مادة (جدد) لها معان متعددة، منها: جدَّ بمعنىٰ صار جديداً، وبمعنىٰ اجتهد. وأصل الجَدِّ القطع، تقول: "ناقة جدود، التي انقطع لبنها"، وجدَّ الشيء يجِدُّ بالكسر، جِدَّة: صار جديداً، وهو نقيض الخلِق. والجِدَّة مصدر الجديد، وأجدَّه وجدَّدَه واستجده أي صيَّره جديداً". و"الجِدَّة نقيض البِلىٰ"، والجديدان، الليل والنهار، لأنهما لا يبليان. ومن تلك المعاني: الاجتهاد في الأمور، وإذا رجعنا إلىٰ الاستعمال القرآني للأصل (جدد)، نجده لم يستعمل بمعناه الأصلي الدال علىٰ "القطع"، وقد ورد ست مرات بلفظ "جديد" في الآيات التالية: ﴿أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ [الرعد: ٥]. وقوله: ﴿وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ [إبراهيم: ١٩] وقوله: ﴿إِنَّكُمْ لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ [سبأ: ٧]. وقوله: ﴿بَلْ هُمْ فِى لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ [ق: ١٥]. والخلق الجديد، الحديث العهد بالوجود. أي في خلق غير الخلق الأول الذي أبلاه الزمان. فجديد فعيل من جَدَّ بمعنىٰ قطع. أي مقطوع، وجاءت مرتين بلفظ "جديداً"، في ﴿وَقَالُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا﴾ [الإسراء: ٤٩، ٩٨].

في حين تنحو السنة إلىٰ ضبط هذه المعاني (الاجتهاد والتجديد) ضبطاً توجيهياً إرشادياً، لا تقنينياً حصرياً يلغي كل المعاني والدلالات الأخرىٰ. وتستعمل في مادة (جدد) كثيراً من مشتقاتها الدالة علىٰ: القطع والصرم، الغنىٰ، العظمة، الاجتهاد، عدم الهزل، الطريق الظاهر، الجديد في مقابل الخلِق أو نقيض البِلىٰ... الخ. وتدل

obeikan.com

على هذا المعنى أحاديث "تجديد الإيمان" كما في الحديث: "إن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها دينها". أي يبين السنة من البدعة ويكثر العلم وينصر أهله ويكسر أهل البدعة ويذلهم، وإحياء ما اندرس من العمل من الكتاب والسنة والأمر بمقتضاهما.

ومن العلماء من رأى التجديد حركة فرد أو أفراد، ومنهم من رأى فيه حركة مجتمع بكامل مكوناته.. وهذا من أرجح وأصوب ما قيل في تفسير "مَنْ". والمجدد هو المجتهد. إذ لا يمكن أن يطلع بمهمة التجديد في الدين إلا مجتهد مؤهل للاجتهاد. ولا ينحصر الاجتهاد في اصطلاح خاص، فمن العلماء من يجعل التجديد أعم من الاجتهاد وأشمل، وليس صحيحاً دائماً أن كل مجدد مجتهد، وليس كل مجتهد مجدداً.

وقد يكون المجتهد واحداً، وقد يكون اثنين وجماعة، وهي لا تخص أهل الفقه فقط، حيث قالوا: على رأس الثلاثمائة ابن سريح في الفقه، والأشعري في الأصول، والنسائي في الحديث، وعلى الستمائة: الفخر الرازي في الكلام، وهكذا...، فهي لا تختص بالفقهاء دون غيرهم. أما تخصيص الرأس كما يقول المناوي فإنما هو لكونه مظنة انخرام علمائه غالباً وظهور البدع ونجوم الدجالين.

وتجديد الدين كما يرى الترابي أمر ينبغي أن تقوم به حركة وجماعة واسعة لا سيما في عصرنا حيث الحياة قد تشعبت، وأصبح تجديد الفكر أوسع وأكثر تركيباً وتعقيداً من أن يقوم به رجل واحد مهما كان دوره في دفع التجديد.

ويقول المودودي: "لا يكفي لتجديد الدين في زمن من الأزمان إحياء العلوم الدينية وبعث الولوع باتباع الشريعة فحسب، بل يلزم لذلك إنشاء حركة شاملة تشمل بتأثيرها جميع العلوم والفنون والأفكار والصناعات ونواحي الحياة الإنسانية جمعاء". فمن المعلوم أنه لا يقوم في وجه التيار إلا التيار، ولا بد لإزالة فساد شامل للحياة كلها من برنامج جامع يقوم بعمل الإصلاح من الجذر إلى الفروع بغاية

من الاتزان والتناسب. ويرىٰ القرضاوي أنه يقتضي توسيع تعريف التجديد حتىٰ يتوافق مع ما جاءت به الأحاديث التي ترىٰ أن نصرة الدين منوط بطائفة تقوم علىٰ الحق لا بفرد واحد، كما في الحديث الصحيح المعروف "لا تزال طائفة من أمتي قائمين علىٰ أمر الله لا يضرهم من خالفهم حتىٰ يأتي أمر الله وهم علىٰ ذلك"، وهو الموافق لما في كتاب الله تعالىٰ حيث يقول: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ ۚ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٤].

فالتجديد لشيء ما هو إلا محاولة العودة به إلىٰ ما كان عليه يوم نشأ، بحيث يبدو مع قدمه كأنه جديد، حتىٰ يعود أقرب ما يكون إلىٰ صورته الأولىٰ. وليس معناه تغيير طبيعة القديم أو الاستعاضة عنه بشيء آخر مستحدث مبتكر، إنما هو بناء علىٰ الأساس القديم، وعود بالدين إلىٰ مغزاه الأصل، وهو تنقية الإسلام من كل جزء من أجزاء الجاهلية، ثم العمل علىٰ إحيائه خالصاً محضاً علىٰ قدر الإمكان.

وينصبُّ التجديد علىٰ دين الأمة [تدينها]، وليس علىٰ دين الله تعالىٰ، فما كان من قبيل العبادات أو الأحكام التي نص عليها الكتاب أو السنة أو أجمعت عليها الأمة، فالتجديد فيها يكون بالرجوع بالأمة إلىٰ ذلك النص، أما ما لم يرد به نص، ولم يتقرر له حكم فيما سلف مما يحدث ويجدّ بحكم التطور وتقلب الزمن، فإن علىٰ الفقهاء أن يجدوا له حكماً بواسطة قياسه علىٰ ما تبث، وإلحاقه بما عُرف. ويضاف إليه أن ما لم يرد به نص ولم يتقرر له حكم فيما سلف فيما يجدّ وليس له نظير يقاس عليه أو يلحق به، فإنه يجتهد فيه ليأخذ حكمه وفق القواعد والضوابط المقررة.

فالتجديد الفكري في الإسلام ليس نسخاً أو تأسيساً لفكر جديد، أو مجرد إحياء لفكر قديم، بل هو عملية تفاعل حيوي داخل فكر قائم لإعادة اكتشافه وتطويره وفقاً للفهم الزمني الذي يعي حاجات العصر، أي أنه لا ينطلق من فراغ، بل له قواعده ومنهجيته ومرجعيته وثوابته. فالتجديد خطاب نهضويٌّ يستهدف البنية الفكرية لتلبي جميع حاجات الإنسان المعاصر، وتتكون مرجعيته من: القرآن

الكريم والسنة المطهرة، وأدوات فهم الأصول وآلياته، كالعقل والإجماع وغيرها.. والتراث الفكري والفقهي.

ومن أبرز الخصائص التي تميز الفكر الإسلامي: المرجعية، والوحدة، والشمولية، والأصالة، والتوازن، والواقعية: المتضمن للمعاصرة وهموم ومشكلات الواقع الحاضر.

ثانياً: معالم في الأسس المرجعية والمنهجية للتجديد في الفكر الإسلامي المعاصر (قراءة في نماذج)

يرى البعض كما يقول أمين الخولي أن مفهوم التجديد يكمن في الرجوع إلى النبع الصافي الذي انقطع صبه ومجراه في الحياة، واستغنى الناس عنه بما ركد وأسن، لكثرة ما تكدس فيه من أعشاب وطحالب.

الفكر المعاصر يسعف ببعض الإجابات التي يمكن من خلالها تبين معالم لأسس مرجعية ومنهجية لهذا التجديد. ويحدد القرضاوي "مفتاح" التجديد للدين في "الوعي والفهم"، يقول: "ولا أعني بالفقه المعنى الاصطلاحي المعروف وهو ما يتعلق بمعرفة الأحكام الفرعية، ولكن أعني بالفقه مفهومه القرآني والنبوي.. المذكور في قوله تعالى: ﴿قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْآيَٰتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ﴾ [الأنعام: ٩٨] وفي قوله ﷺ: "من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين". والفقه كما يدل عليه القرآن والسنة فقهان: فقه في الكون، وفقه في الدين. فالأول يعني الفهم عن الله فيما خلق، يراد به الفقه لآيات الله في الآفاق والأنفس والسنن التي لا تتبدل في الكون والإنسان. والثاني يعني الفهم عن الله فيما شرع... وهنا لا بد من نظر اجتهادي مستأنف لفهم الدين فهما يراد به معالجة الواقع، وهو كما يقول عبدالمجيد النجار نظر يلتزم ضرورة فحص التراث واستيعاب ما ورد من أفهام ثرية، ولكنه التزام استفادة واهتداء، وليس

obeikan.com

التزام اتباع وتقليد لأفهام السابقين على سبيل الحتم المفروض، فإن ذلك لا يبرره شرع ولا ينصلح به واقع.

ويتم هذا التجديد الديني المنشود كما يرى الترابي في مستويات ثلاثة: أن نرده إلى الأصول الأولى من القرآن والسنة، مستنيرين بتقاليدنا وبتراثنا وتجارب سلفنا الصالح، وأن نجدد الصلة بالعلوم: العقلي.. والاقتصادي.. والعلم بطبائع البشر وطبائع الأشياء. وأن نربط بين الفكر الإسلامي والواقع، وأن نحقق الإسلام في واقع الحياة حتى يمكن أن يمتزج الواقع بالدين امتزاجاً حياً.

ويمكن تحديد معالم هذه الأسس في: كون التجديد ينطلق أساساً من الكتاب والسنة. وأنه يستعين ويسترشد في ذلك بتجربة الصدر الأول وخاصة جيل الصحابة في الفهم والتنزيل، والتجربة التاريخية عموماً، وقد تختلف تفريعات المفكرين والعلماء قليلاً أو كثيراً في ضبط أشكال التعامل الجزئي في منهج الفهم، وهذا لا يضر ما دام المنبع والمصب واحداً.

ويحدد عبدالله بن عبدالمحسن التركي في كتابه منهج تجديد الفكر «قواعد المنهج» ويذكر من قواعد ذلك المنهج التجديدي، وهي: قاعدة فهم الدين، وفهم الواقع، وأن معظم النصوص ظني الدلالة، وقاعدة فضل الله وكرمه. وكون «فقه الفهم» في التجديد شاملاً ومستوعباً، بالإضافة إلى الفهم الشرعي، لدور المعرفة العقلية في الفهم والاستنباط، واستخلاص السنن والعبر الكونية.. والإفادة من العلوم المختلفة المساعدة على ذلك.. وكونه يركز في المرتبة الثالثة على دور المعرفة الواقعية الظرفية المساعدة على الفهم والمحددة لأشكال التنزيل وتحقيق التدين بناء على العنصرين السابقين.

ومهما تتبعنا النماذج الكثيرة في فكرنا المعاصر، لا نكاد نجدها تخرج عن هذه الإطارات الثلاثة في التجديد الديني والفكري للأمة. ويمكن اختصار معالم هذا المنهج في كلمات ثلاث يصب بعضها في بعضها الآخر، هي:

Open-Kan.com

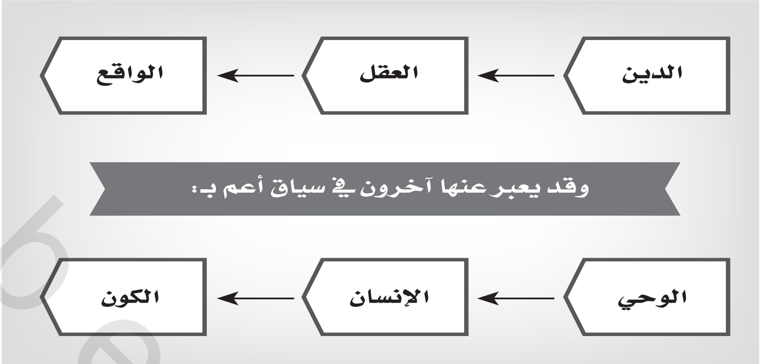

فالبناء الاجتماعي لا يقوى على البقاء بمقومات الفن والعلم والعقل فحسب، لأن الروح هو الذي يتيح للإنسانية أن تنهض وتتقدم، فحيثما فقد الروح سقطت الحضارة وانحطت، لأن من يفقد القدرة على الصعود لا يملك إلا أن يهوي بتأثير جاذبية الأرض. وكما يقول مالك بن نبي في وجهة العالم الإسلامي: "إذا وهنت الدفعة القرآنية توقف العالم الإسلامي، كما يتوقف المحرك عندما يستنزف آخر قطرة من الوقود. وما كان لأي معوض زمني أن يقوم خلال التاريخ مقام المنبع الوحيد للطاقة الإنسانية، ألا وهو: الإيمان". ويحدد مالك بن نبي الشروط الواقعية للنهضة والحضارة: الإنسان والتراب والزمن، إذ في هذه العوامل ينحصر رأس مال الأمة الاجتماعي الذي يمدها في خطواتها الأولى في التاريخ، ويجعل "توجيه" الفكرة الدينية لهذه العوامل أمراً ضرورياً ولازماً لنهضتها وحسن استثمارها.

فالاجتهاد بحسب الجابري هو دوماً اجتهاد في الواقع والنوازل المستجدة، ولم يكن ما كان يستجد من أمور في أي مجال من مجالات الحياة يدخل في أي تعارض مع نمط الحياة السائد. ومن أولويات التجديد الراهنة والمطروحة بقوة -كما يحددها منير شفيق: المسائل المتعلقة بتحرر الأمة من السيطرة الأجنبية واستعادة حريتها واستقلالها وعزتها.. وقضية فلسطين في المركز من بين التحديات الكبرى.. ومشكلة

وحدة الأمة وتمزقها، ومشكلات الأمة المتعلقة بالتنمية، ومسائل العدالة الاجتماعية وكرامة الإنسان والشورى وعلاقة الحاكم بالشعب، ومشكلات العصر الكبرى.. تلوث البيئة، التسلح النووي، الديون، والظلم بحق الشعوب المستضعفة... انهيار العائلة.. الخ.

فتحديد معالم منهج عامة وموحدة للاجتهاد والتجديد ليست من قبيل المستحيل، ولا تستدعي دائماً أشكالاً من الخلاف السلبي، بل تعمل على رفعه والتقريب بين وجهات النظر فيه.

ثالثاً: التجديد، وتعدد المرجعيات في الفهم والاستعمال

تتباين آراء الباحثين في التمييز بين التجديد وبين مصطلحات أخرى قريبة منه، تحمل بعضاً من معانيه في جانب أو جوانب متعددة. وذلك بسبب ما حملته تلك المصطلحات في الاستعمال المعاصر من معان ودلالات، تجافي الحقائق الدينية والتاريخية للأمة. والواجب هو تحرير هذه المصطلحات ومفاهيمها من تلك المعاني والظلال السلبية بإبراز أصولها اللغوية والشرعية والاصطلاحية التاريخية، وليس إهمالها وتركها تسحب من مجالها الأصلي إلى مجالات أخرى لتصبح في وقت من الأوقات غريبة حتى عن مجالها.

وقد ساهمت كثير من الكتابات في فكرنا المعاصر في عملية العزل هذه في مجال الفكر والحياة، ونشبت معارك بين اتجاهات نقلية وأخرى عقلية، ولهذا فالنظر إلى التجديد ينبغي ألا يتحدد من خلال نظرة أحادية تجعله نقيضاً أو نفياً لما يقابله، بقدر ما ينبغي أن يكون مستوعباً لها، ومعبراً عنها كلياً أو جزئياً.

وهذه نماذج من النصوص الداعية إلى أشكال من التمايز أو التداخل بين التجديد وغيره من المصطلحات، وهي تصب عموماً فيما ألمحنا إليه. فالتجديد

نسق وآلية في التطور والتقدم، تطور ليس إعادة قديم كان، وإنما هو اهتداء إلى جديد كان بعد أن لم يكن، سواء أكان الاهتداء إلى هذا الجديد بطريق الأخذ من قديم كان موجوداً، أم بطريق الاجتهاد في استخراج هذا الجديد بعد أن لم يكن. ومفهوم الإبداعية كما يرى برهان غليون هو المقابل لمفهوم التكيُّف الذي لم يكن يعني في الواقع إلا تزويد المنظومات المحتاجة إلى تجديد بوسائل صبغ المعاني القديمة بالصبغة الجديدة..

والحاصل أن التجديد الديني انحسر في وجهين اثنين من داخل الشريعة.. أدناهما إحياء، وأقصاهما تطوير للدين.. والتجديد الأكمل ما اشتمل الوجهين جميعاً: أما إحياء الدين فهو كسب تاريخي ينهض بأمر الدين بعد فترة، وأما التطوير.. فهو كسب تاريخي أعظم مما يبلغه مجرد إحياء الدين بالبعث والإيقاظ والإثارة.

ويكفي أن نقدم نموذجاً واحداً لاتجاهات عدة تمثل هذا المنحى في التوظيف والاستعمال تحت غطاء "الإصلاح والتجديد في الدين"، يذهب صاحبه هشام جعيط إلى أنه ينبغي على البلدان المتخلفة اللحاق في ميدان التشريع بالبلدان المتطورة، وأن يتوقف العمل بالتشريع غير الملائم القاسي المعروف بإقامة الحدود والذي تخلى عنه الأمويون منذ ثلاثة عشر قرناً خلت، ينبغي أن يركز الجهد على ميدان قانون الأحوال الشخصية الشاسع والذي ما زال خاضعاً لصيغة عتيقة وتنصيعات قرآنية. فالناس في شأن التجديد أقسام ثلاثة: أدعياؤه أو "الغلاة في التجديد، وأعداؤه" الذين يريدون أن يبقى كل قديم على قدمه، حكمتهم المأثورة: ما ترك الأول للآخر شيئاً.. وليس في الإمكان أبدع مما كان. وبين هذين الصنفين يبرز صنف وسط، يرفض جمود الأولين وجمود الآخرين، يلتمس الحكمة من أي وعاء خرجت، ويقبل التجديد ويدعو إليه، وينادي به على أن يكون تجديداً في ظل الأصالة الإسلامية، يفرق بين ما يجوز اقتباسه وما لا يجوز، ويميز بين ما يلائم وما لا يلائم، شعارهم الجمع بين القديم النافع والجديد الصالح.

ومن المفكرين المعاصرين الذين أُوذوا كثيراً بسبب أعمالهم التجديدية، الشيخ محمد الغزالي، وحسن الترابي.. وغيرهما، وعموم تلك الاعتراضات على الشيخ الغزالي لا تخرج عن مسلكين اثنين: مسلك تشكيكي في العمل جملة برده إلى اتجاه عقلي «مشكوك» في أقواله وأعماله، ومسلك انتقائي تتبعي للألفاظ والعبارات الواردة عفواً أو قصداً، مع إغفال المعاني والدلالات والخلاصات الكبيرة التي يقصدها، والتركيز على هوامش وجزئيات هي تالية عنده في ترتيب أولويات النهوض. ومعالم منهجه رحمه الله لا تخرج عن سلف ولا عن خلف، فمرجعه الأول للأخذ والاستمداد هو القرآن الكريم، ثم سنة رسول الله ﷺ ومنهجه فيها واضح، فإذا استجمع الخبر المروي شروط الصحة المقررة بين العلماء فلا معنى لرفضه، وإذا وقع خلاف محترم في توفر هذه الشروط أصبح في الأمر سعة، وأمكن وجود وجهات نظر شتى.

رابعاً: مصطلحات من نفس العائلة

تقدمت الإشارة إلى مجموعة من المصطلحات، وإلى أنها تشترك مع التجديد في كثير من معانيه، إن لم تكن تؤدي في مجموعها، معناه الكلي والشامل. وثمَّة عناصر مشتركة تجمع بين هذه المصطلحات.. فكونها متعلقة: بالفرد والجماعة، بالذات وبالآخر، بالأشياء وبالأفكار، بالدنيا وبالآخرة..، وكونها محتوية لصفات: الحركة والتجدد، والبناء والعطاء، والانتقال من وضع إلى وضع.. وبعضها ينوب عن بعض.

١- التغيير:

تغير الشيء عن حاله تحول، وغيره بدّله وحوله، كأنه جعله غير ما كان. وفي التنزيل العزيز ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمۡ يَكُ مُغَيِّرٗا نِّعۡمَةً أَنۡعَمَهَا عَلَىٰ قَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡ﴾ [الأنفال:٥٣] والتغيير على وجهين: تغيير صورة الشيء دون ذاته. والثاني تبديله بغيره، و"ما" تشمل ما يمكن أن يلاحظ ويرى من أوصاف المجتمع من

الغنىٰ والفقر، والعزة والذلة، والصحة والسقم.. وفي الحديث عند مسلم عن أبي سعيد الخدري: سمعت رسول الله ﷺ يقول: (من رأىٰ منكم منكراً فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان).

إن نظام "حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ": "يفيد أنه يمكن أن توضع في النفس الأفكار ابتداء، كما يمكن أن يرفع ما فيها من مفاهيم ويوضع فيها أخرىٰ. وهذا أهم في عملية التغيير من إنشاء الأمر ابتداء. ومع ذلك أسند الله للبشر هذه القدرة في إزالة المفاهيم واستبدال غيرها بها".

وفي محاولة لتلمس "قواعد التزكية الأساسية" لتغيير ما بالنفس، يحدد العلواني أربع قواعد أساسية هي: قاعدة التوحيد، واستعلاء الإنسان بخالقه علىٰ ما سواه، وقاعدة الإيمان بوحدة البشر في الأصل والمنشأ والمصير والمآل والمهمة العمرانية، والحقيقة الإنسانية. ووحدة الحق وثباته، وتفرد الباري جل شأنه بالإحاطة التامة بامتلاك الحق والحقيقة. أما الإنسان فعليه أن يطلب الحق ويسعىٰ إليه، ويتوسل بكل ما من الله عليه به من وسائل.. والإيمان بالخلافة، خلافة الإنسان في الكون، وتسخير الكون له.

ويختزل عبدالمجيد النجار "عملية التغيير" في محورين رئيسيين: "محور يعتمد رفض الواقع.. ومحور يعتمد تنزيل البديل منزلته، برسم صورة واضحة لذلك البديل.. وبيان السبل التي تيسر تنزيله، والمسالك التي يصير بها واقعاً يحل محل الفساد.."

٢- الإصلاح:

الصلاح ضد الفساد، وقد أصلح الشيء بعد فساده، أقامه. وتصالح القوم بينهم، وقد جعل الله المصلح مقابلاً للمفسد، فرداً كان أو جماعة. كما في قوله: ﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ ٱلۡمُفۡسِدَ مِنَ ٱلۡمُصۡلِحِۚ﴾ [البقرة: ٢٢٠]، وأحياناً يكون الإصلاح قريناً للتقوىٰ، والبر،

والعفو، والإيمان.. وكلها منطلقات ضرورية للعمل الإصلاحي، تشكل بالنسبة له الدعامة النفسية والروحية والأخلاقية.. ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ﴾ [الشورى: ٤٠]. ﴿أَن تَبَرُّواْ وَتَتَّقُواْ وَتُصْلِحُواْ بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾ [البقرة: ٢٢٤]. وقد غلب على جل الآيات قرن العمل الصالح بالإيمان، ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾. فلا إيمان بدون عمل صالح، ولا عمل صالح بلا إيمان، ومنها ما ورد بصيغة الأمر: ﴿فَأَصْلِحُواْ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ﴾ [الحجرات: ١٠] ومنها بصيغة الندب والترغيب، ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ﴾ [هود: ١١٧].

٣- الإحياء:

الحياة والحيوان، ضد الموت والموتان. والحياة والموت كما يطالان الإنسان والحيوان، والنبات والأرض.. يطالان أيضاً الأفكار والمبادئ والعقائد والنظريات.. ففي قوله تعالى: ﴿وَمَا يَسْتَوِي ٱلْأَحْيَآءُ وَلَا ٱلْأَمْوَٰتُ﴾ [فاطر: ٢٢]، فسره ثعلب قال: الحي هو المسلم والميت هو الكافر. قال الزجاج: الأحياء المؤمنون، والأموات الكافرون. وقوله تعالى: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِي بِهِۦ فِي ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾ [الأنعام: ١٢٢]. فجعل المهتدي حياً، وفي الحديث عن عائشة: "كان النبي ﷺ إذا دخل العشر، شد مئزره وأحيى ليله، وأيقظ أهله"، قال الحافظ: "أحيى ليله، أي سهره فأحياه بالطاعة، وأحيى نفسه بسهره فيه". وعن أبي أمامة: قال رسول الله ﷺ: "ستكون فتن، يصبح الرجل فيها مؤمناً ويمسي كافراً، إلا من أحياه الله بالعلم".

هذه الصورة بتفاصيلها، تصدق على العمل الإحيائي لما اندرس من السنن، وتعطل من الشرائع، واندثر من العلم النافع في الأمة، بسبب ما طرأ عليها من الجمود والتقليد والضعف.. وتسمية ذلك تجديداً، أو تغييراً، أو إصلاحاً، أو إحياء، أو بعثاً.. كله واحد، ويخدم الغرض نفسه.

٤- البعث:

له أصل واحد، هو الإثارة.. يقال: بعثت الناقة إذا أثرتها. والبعث على وجهين: أحدهما الإرسال: كقوله تعالى: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ﴾ [الأعراف: ١٠٣] والثاني الإحياء للموتى، ومنه قوله تعالى: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَٰكُم مِّنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ﴾ [البقرة: ٥٦] فالإرسال، والإحياء، والنشر، والإثارة، والحمل على الفعل، والمضي لقضاء الحاجة.. كلها صور من البعث، دالة على فعل وحركة، كقوله تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ أُولَىٰهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَآ أُوْلِي بَأْسٍ شَدِيدٍ﴾ [الإسراء: ٥]. وبين "البعث الديني الشرعي" المتضمن للخطاب التكليفي للإنسان، وله حرية الطاعة أو العصيان، كما في قوله تعالى: ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾ [البقرة: ٢١٣].

٥- النهضة:

لها أصل يدل على حركة في علو.. نهض ينهض نهضاً ونهوضاً، وانتهض أي قام، فالنهضة أو النهوض، حركة وقيام واستجماع للقوة، ولا تشذ في شيء عن المصطلحات والمعاني السابقة. وإن لم يكن لها استعمال في القرآن، فإنها مستعملة في السنة في كتب وأبواب الصلاة وهيآتها، إلا أننا مع مصطلح "نهضة" وبسبب الاستعمال الكثير له منذ منتصف القرن الماضي، حتى غدا علماً على مرحلة فكرية قادها جيل من المفكرين يدعون بـ «رواد النهضة». وإن مصطلح Renaissance -ويعني لغوياً: "ميلاد جديد"- لم يظهر في اللغة الفرنسية إلا مع بداية القرن التاسع عشر. هذا في حين أن «الميلاد الجديد» الذي يشير إليه قد انطلق من إيطاليا ليعم أوربا في القرنين الخامس عشر والسادس عشر، وهو يتمثل في قيام حركة تجديد واسعة وعميقة شملت الفنون والعلوم والآداب، حركة اعتمدت إحياء التراث الإغريقي - روماني، مما جعل منها حركة تجديدية بمعنى الكلمة. ولا يعني مصطلح

"عصر النهضة" كما يقول صلاح قنصوة: كياناً محدداً لمجموعة من الممارسات المعينة التي كان أصحابها يعرفون أنهم ينتمون إلى عصر "النهضة" لأن المصطلح نفسه نشأ بعد هذا العصر الذي سمي كذلك بما يقرب من قرن ونصف على يد (جورجو فازاري) عام ١٥٥٠ ليصف به التغيير الذي طرأ على فن التصوير. وكذلك ما يسمى بعصر "التنوير" استخدمه إيمانويل كانط في مقال شهير له عام ١٧٨٤ بعنوان "ما هو التنوير"، وسرعان ما داع المصطلح وأصبح مصطلحاً تاريخياً.

وعند حسن حنفي فإن عصر النهضة قد استطاع أن يعلن عن نهاية مرحلة المصادر وبداية مرحلة التكوين في الوعي الأوربي. واستطاع إحداث قطيعة بين الماضي والحاضر. ونقد الموروث حتى يمكن التحرر منه كمصدر للعلم وكقيمة في السلوك. وبالمقارنة مع الوضع العربي والإسلامي نجد أن عصر النهضة هذا الذي يمثل حلقة الاتصال الفعلي بين العصر الوسيط والعصور الحديثة.. والمتوجه نحو المستقبل.. بخلاف الإصلاح الديني المتوجه نحو الماضي..، فنحن نعيش مشاكل عصر النهضة الأوربي وربما نمر بمرحلته التاريخية دون أن يعني ذلك أي تواز بين مسار الحضارتين...

ويذهب الجابري إلى أن هذا "يدل على أن وعي النهضة عند العرب يقوم أساساً على الإحساس بالفارق بين واقع "الانحطاط" الذي يعيشونه، وواقع النهضة الذي يقدمه لهم أحد النموذجين، والنتيجة أنهم عندما يفكرون في النهضة لا يفكرون فيها كبديل عن الواقع الذي يعيشونه، بل إنما يفكرون فيها خارج الواقع، أي من خلال نموذج جاهز، ولكنه آخذ في الابتعاد عنهم باستمرار. النموذج العربي الإسلامي الذي يزداد مع الوقت "توغلاً" في الماضي بالشكل الذي يجعل التفكير فيه يفقد أسبابه الموضوعية. والنموذج الأوربي الذي "يتوغل" في المستقبل بالشكل الذي يجعل الأمل في اللحاق به يتضاءل أمام اضطراد التقدم العلمي والتكنولوجي الهائل..".

openikan.com

لكن أنواعاً من المقارنات و "الأقيسة" التي يعقدها الجابري من غير "علة جامعة" أحياناً كثيرة، وفي سياق تقريري ينتظم في خط واحد خيار "الحضارة الإسلامية" أو خيار "الحضارة الغربية" وكأنهما في العقل والوجدان العربي والإسلامي شيء واحد.. وكأن أبناء الحضارة الأولى منبتّون عن تاريخهم وأصولهم ويبحثون انطلاقاً من درجة الصفر عن "تاريخ وأصول" أو بالأحرى عن "مستقبل" هو أمر لا يستقيم وغير مسلَّم ببداهة العقل والتاريخ. فما تزعمه نخبة وتطلع إليه على مستوى الحلم والأمل لا يمكن سحبه ولا تعميمه على قاعدة عريضة أوسع، ترفض تزييف هويتها والانفصال عن تاريخها. ويقابل الجابري أيضاً القول المأثور "لا يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها" معتبراً "ما" هنا تفيد أموراً منها "سقوط الغرب"، مع الشعار اللبرالي العربي القائل "لن ننهض إلا بما نهضت به أوروبا"، حيث تفيد "ما" هنا كذلك أموراً منها "غياب كل منافس ومعترض..".

ومع برهان غليون، "علينا قبل أن نتحدث عن النهضة وعن مفهوم النهضة أن نقوم بتحديد النصاب المعرفي والإبستمولوجي الذي تتمتع به، وذلك لأنها تستخدم استخدامات مختلفة جداً. فهل عندما نتحدث عن النهضة نصف واقعاً؟ أم أننا نتحدث عن مفهوم إجرائي؟ وفي الحالة الثانية، هل ينطبق هذا المفهوم على فعل حصل أم لا؟"، وهذه أسئلة تتجه فعلاً إلى تحديد وظيفة وواقعية المفهوم في التداول العربي والإسلامي. فالنهضة هي "مجرد وصف لحالة أو لإشكالية، إنها ليست فكراً متجانساً، وليست واقعاً متحققاً فيما بعد، ولا وجود لشيء في العالم العربي كما يقول غليون اسمه عصر النهضة. إلا إذا شئنا أن نسمي ما حصل من قطيعة بالمقارنة مع استمرارية الفكر العربي الإسلامي التقليدي، ومن طرح لمسائل جديدة وإشكالية جديدة صاغها بعض المثقفين.." وفي هذا المعنى يقول غليون: "أنا أعتقد أن إشكالية النهضة انتهت مباشرة عندما بدأت الدول العربية تخضع للاحتلال الأجنبي، أي في بداية القرن العشرين وبالضبط عندما أصبحت مصر تحت السيطرة الكاملة لقوات

الاحتلال الأجنبي (...) وانتقلت القضية من قضية تقدم وتجاوز للهوة الحضارية التي كانت تعبر عنها إشكالية النهضة، إلىٰ قضية دفاع ضد المستعمر. ودخلنا في حقبة تاريخية ثانية، ومنذ زمن قليل بدأنا نستعيد إشكالية النهضة، وصادف ذلك أننا حصلنا علىٰ الاستقلال الوطني، وأننا بدأنا نفكر ونعيد التفكير من جديد في مشروع التطور".

ويذهب ساطع الحصري إلىٰ أنه "انطلاقاً من عدم أصالة المثقف العربي المتغرب، فقد انقسمت عملية التنمية في العالم العربي بالمحاكاة والتقليد، الأمر الذي شكَّل عاملاً أساسياً في ضعفها".

ويذهب منير شفيق إلىٰ طرح أسئلة جوهرية تتعلق بـ "مقياس" و"معيار" النهضة أولاً قبل الحديث عن جزئياتها وأشكالها. فإن كان المقصود بعصر النهضة، عصر نهضة العالم كله، فإن المعيار الذي يجب أن يقاس به هو العالم كله. أما إذا كان المقصود نهضة لبلد بعينه فالمعيار يصبح جزئياً، ومن ثم يمكن الطعن به إن جاءت تلك النهضة وبالاً علىٰ الشعوب الأخرىٰ". ذلك أن معاني النهضة والنهوض.. ما تزال قائمة، والحاجة إليها ما تزال ماسة.